البحث الرابع

الشجرة التي أكل منها آدم وحواء

فأخرجا من الجنة

قال تعالى في سورة البقرة ٣٤: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين. وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو لكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم).

المراد من لفظ الملائكة

ولفظ الشيطان أو إبليس ومن الأمر بسجودهم لآدم

وما قاله المفسرون في ذلك وما أفهمه في هذا الموضوع

المراد من السجود هنا مطلق الخضوع والانقياد واختلف العلماء فيما هو المراد من الملائكة فقال بعضهم هم أجسام لطيفة نورانية أو هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة. وقال بعضهم هم جواهر مجردة عن الماديات والجسمانيات قائمة بأنفسها لا تحتاج إلى حيز.

أقول أن استثناء إبليس من الملائكة في الآية قد يشعر باتحادهما في الماهية وإن اختلافا بالصنف والصفة. ويدل على ذلك ما ورد في بعض الآثار من أن إبليس كان من أكابر الملائكة ومن أكثرهم عبادة لله تعالى، وأما قوله تعالى في سورة الكهف (إلا إبليس كان من الجن) فإنه لا ينافي ذلك لأن لفظ الجن كما يصح إطلاقه في اللغة على إبليس فإنه يصح إطلاقه لغويا على الملائكة أيضا لأن الجن مأخوذ من الإجتنان أي التستر والملائكة وإبليس كلاهما مستور عن العيون خصوصا وأن القرآن قد أطلق لفظ الجنة على الملائكة في قوله تعالى: (وجعلوا بينهم وبين الجنة نسبا) أي بينه وبين الملائكة كما هو معروف.

والمعنى أن إبليس أبى واستكبر عن الخضوع لآدم المخلوق من الطين أي من الكثافة والبرودة لأنه أي إبليس من الجن المخلوقين من النار أي من الحرارة والرقة والخفة كما قال تعالى حكاية عنه في آية أخرى (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) ولا مانع من كون الجن المخلوقين من نار يسمون ملائكة أيضا لان معنى كونهم من نار أنهم ليسوا مخلوقات مادية من طين كآدم بل هم مخلوقات لطيفة نورانية نارية وقد قال تعالى (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة).

القوى الجبارة التي اكتشفت في هذا العصر

مما يصح أن يطلق عليها لفظ الجن والشياطين والملائكة

حسب ما ينشأ عنها من ضرر أو نفع

أقول ولا مانع أيضا أن تكون القوى الطبيعية النارية كالديناميت والطاقة الذرية ونحوها مما تكمن فيه القوى الجبارة التي اكتشفت في هذا الزمن مما يصح أن يطلق عليها أيضا لفظ الجن والشياطين أو الملائكة بحسب ما ينشأ عنها من الخير أو الشر.

وقد ورد من الملائكة من قلب المدن والقرى عاليها سافلها وأن من الجن والشياطين من فعل الأعاجيب لسليمان عليه السلام. وحيث أن هذه القوى الجبارة التي اكتشفت الآن قد فعلت مثل ما كان يفع ما يسمونه جنا أو شياطين أو ملائكة من قديم الزمان فأي مانع حينئذ من تسمية هذه القوى المكتشفة حديثا جنا أو شياطين أو ملائكة بحسب ما ينشأ عنها من الخير أو الشر وما ينبعث منها من نفع أو ضرر.

وقال بعضهم: الملائكة هي الأرواح الإنسانية الصافية الخيرة كما أن الشياطين هي الأرواح الإنسانية الخبيثة الشريرة إذا فارقا أبدانهما.

القوى الطبيعية والأرواح الخفية

المنبثة في جميع الأشياء الأرضية

يصح أن يطلق عليها لفظ ملائكة

وقال بعضهم -واختاره الأستاذ الإمام- إن مما يصح أن يطلق عليه لفظ ملائكة أيضا القوى الطبيعية والأرواح الخفية المنبثة في جميع الأشياء الأرضية لأن ما ورد في وصف الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إشارة دقيقة إلى أن هذا النمو من النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال في الحيوان والإنسان فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده فإنما قوامه بروح إلهي سمية في لسان الشرع ملكا، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني بالقوة الطبيعية، والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقه أمرا هو مناطها وبه قوامها ونظامها لا يمكن لعاقل أن ينكره. وإن أنكر غير المؤمن تسميته ملكا وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة أو أنكر بعض المؤمنين تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا لكون هذه الأشياء لم ترد في الشرع. فالحقيقة واحدة والعاقل لا تحجبه الأسماء عن المسميات. ويشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير، ووجه للباطل أو للشر- بأن في نفسه تنازعا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى فهذا يورد وذلك يدفع وأحد يقول افعل وآخر يقول لا تفعل حتى ينتصر أحد الطرفي ويترجح أحد الخاطرين فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكرا وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه وروح لا تكنه حقيقتها- لا يبعد أن يسميه الله ملكا أو يسمى أسبابه ملائكة كما أن القوة التي تميل بالمستعد إلى الكمال أو بالكمال إلى النقص وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم وتقطع سبل البقاء وتعود بالموجود إلى الغناء والتي تعارض في إتباع الحق وتصد عن عمل الخير تسمى إبليسا وشيطانا إذ لا حجر في الأسماء.

قال حجة الإسلام الغزالي (إن لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكا وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانا،واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول الهام الخير يسمى توفيقا والذي يتهيأ لقبول الشر يسمى إغواء وخذلانا فإن المعاني المختلفة تحتاج إلى أسامي مختلفة) انتهى.

فأنت ترى من تصريح الإمام الغزالي وغفيره أن كل قوة طبيعية من نبات أو حيوان أو إنسان تكون سببا في النمو والحياة ومصدرا للفائدة والمنفعة ومبعثا للخير والسعادة يصح أن تسمى ملكا. وإن كل قوة طبيعية تكون سببا في الضعف والفناء ومبعثا للشر والضرر ومصدرا للفساد والغواية والضلالة يصح أن تسمى إبليسا وشيطانا.

وحينئذ فلا يستبعد أن تكون هذه الآية أشارة إلى أن الله تعالى لما خلف الأرض ودبرها بما شاء من القوة الروحانية التي بها قوامها ونظامها وجعل كل صنف من القوى مخصصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعدى ما حدد له من الأثر الذي خص به خلق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير وجعله بهذا الاستعداد الذي لا حد له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهي القوة التي

تميل بالشيء إلى الفساد والفناء، وتبعث الإنسان على الشر والضرر، فإن هذه القوة لم يستطع الإنسان إخضاعها إليه وإنما ذلك لله وحده.

ومما يؤيد تفسير هذه الآيات بهذا المعنى كون هذه الآيات قد وردت عقب قوله تعالى: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا) فإن هذه الآية تشير مع قوله تعالى في آية أخرى (ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض) إلى ما ذكرناه من أن كل قوة من قوى الأرض وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها قد خلق خا١عا للإنسان وخلق الإنسان مستعدا لتسخيره لمنفعة أي إلا قوة واحدة هي قوة الشر وناموس الوسوسة المعبر عنها بإبليس. فإن هذه الآيات تفيد أن الإنسان لا يقبلها ولا يخضعها إليه مهما ارتقى وكلم. وقصارى ما يصل إليه الكاملون هو الحذر من دسائسها والسلامة من سوء عاقبتها بأن لا يكون لها سلطان عليه بحيث تجعله مسخرا لها تستعمله في شررها كما قال تعالى (إن عبادي **ليس** لك عليهم سلطان) وكما قال أيضا (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإن هم مبصرون).

خلافة آدم عن الله في الأرض

والمراد من لفظ آدم وحواء هنا

ثم قال تعالى (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ول تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم).

قد عرفت من الآيات السابقة أن الله تعالى لما أراد أن يوجد النوع الإنساني وأن يجعله خليفة في الأرض آذن الأرواح المنبثة في الأشياء لتدبيرها ونظامها وأعلمها بما يريد ففهمت تلك الأرواح من معنى كون الإنسان خليفة أنه يفسد النظام ويسفك الدماء بسبب سلطته على كل ما في الأرض وتصرفه فيها حسب ما يشاء فأعلم الله تلك الأرواح بأنها لا تحيط علما بحكمة إيجاد هذا الإنسان وأن الله هو الذي يعلم ذلك ويعلم أن لهذا النوع الإنساني مزايا وفوائد تتلاشى معها مفاسده وسفكه للدماء ولذلك خلقه وعلمه الأشياء كلها، ولما كان كل صنف من تلك الأرواح لا يعلم إلا طائفة من الأشياء فقد اخضع الله له تلك الأرواح كلها إلا روحا واحدا هو مبعث الشر ومصدر الإغواء، فهذا قد أبى الخضوع واستكبر عن السجود لأن طبيعته تقتضي ذلك.

لما بين الله تعالى ذلك في الآيات السابقة أراد أن يبين هنا أنه أمر هذا الإنسان وزوجه بسكنى الجنة والتمتع فيها ونهاهما عن قرب هذه الشجرة فقال تعالى (فقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين). قال المفسرون المراد من آدم وحواء شخصهما أي أول ذكر خلق من الإنسان المسمى آدم، وأول أنثى خلقت منه المسماة حواء. ولكني أقول ليس المراد بهما شخصهما بل المراد بهما نوعا الذكر والأنثى.

ما أفهمه من لفظ آدم وحواء

أقول أن المراد بهما هنا نوعهما أي مطلق الذكر من الإنسان المعبر عنه بآدم، ومطلق الأنثى منه المعبر عنه بحواء أو بزوج آدم.

ومما يصرح بذلك قوله تعالى في سورة طه: (قلنا اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هدايا فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكى إلخ) فإن قوله (اهبطا) راجعة إلى آدم وزوجته في قوله قبلها (إن هذا عدو لك ولزوجك) فتعبير الآية هنا بقوله جميعا بعضكم لبعض عدو إلخ الذي يفيد الكثرة وبقوله (ومن أعرض عن ذكري) على آخر هذه الآية دليل صريح على أن المراد من آدم هو الذكر مطلقا، ومن زوجه الأنثى مطلقا لا خصوص شخص آدم وشخص حواء فقط بل أناس كثيرون جدا.

ومما يصرح بذلك أيضا قوله تعالى في سورة الأعراف: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) فتعبير الآية بلفظ (ثم) الموضوعة للتراضي في قوله (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) بعد قوله (ولقد

خلقناكم ثم صورناكم) بصيغة الجمع التي تفيد أن الناس كانوا موجودين كثيرا قبل الأمر بالسجود لآدم؛ هذا التعبير دليل واضح على أن المراد من آدم وجنس الإنسان لا شخص آدم فقط.

ومم يصرح بذلك أيضا آية الحجر فإنها تفيد أن السجود كان للإنسان وللبشر مطلقا حيث قال فيها(ولقد خلقنا الإنسان من حمإ مسنون) ثم قال: (إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون) ثم قال: (فقعوا له ساجدين) أي للإنسان والبشر الذي هو أعم من شخص آدم.

آدم وحواء لم يخلقا فردين فقط

بل خلقا أفرادا كثيرة جدا في أقطار متعددة متفرقة

ذكرا وأنثى باسم آدم وحواء أو باسم الإنسان

إن القول بأن المراد من لفظ آدم شخص مفرد معين إنما هو مبني على الاعتقاد السائد من أن الله تعالى حينما خلق الإنسان في بادئ الأمر لم يخلق منه إلا فردا واحدا فقط وهو آدم وأن حواء إنما هي من ضلع من أضلاعه ومن هذا الفرد فقط تفرعت باقي الأفراد ووجدت سائر المخلوقات الإنسانية مع أنه يحتمل أن الله تعالى قد خلق في بادئ الأمر من نوع الإنسان أفرادا كثيرة في أماكن متعددة من الأرض وهكذا سائر أنواع الحيوانات والنباتات كما نشاهد الآن في خلق الحيوانات الصغيرة الجديدة فإنه تعالى يخلق من كل نوع منها أفرادا متعددة في أماكن متعددة ولا داعي لحصر قدرة الله في خلق فرد فقط من كل نوع في بادئ الأمر بل يجوز أن يكون قد خلق من كل نوع أفرادا كثيرة في أماكن كثيرة.

وحينئذ فما المانع من القول بأن الله تعالى كان قد خلق في الأقطار المتباعدة المنفصلة عن بعضها بالبحار ذكورا وإناثا متعددة من نوع الإنسان جعل بينهما التوالد بدون أن يكون اتصال بين مواليد هذا القطر وذلك وأطلق عليهما لفظ آدم وحواء لأنهما أسما جنس كما نشاهد الآن من أنه خلق أنواع جديدة من الحيوانات في عدة أقطار بدون اتصال بين مواليد هذا القطر وذاك.وكلامنا هنا لا يعني إبطال مسألة التطور والنشوء والارتقاء وتنازع البقاء وبقاء الأصلح بل يعني أن الإنسان كان نوعا خاصا مستقلا من بداية نشأته وخلقته، ومن أول وجود بذرته وخليته. ويعني أيضا أن خليته الأولى وبذرته الأصلية لم تخلق واحدة فقط بل خلقت آلاف الملايين في أصقاع متعددة في الأرض شأن بذور جميع الحيوانات والنباتات كما هو مشاهد وكونه كذلك لا يمنع من وجود التصور فيه بصفة كونه نوعا خاصا مستقلا قائما بنفسه لا منشقا من نوع آخر كما يدعي داروينى من أن الإنسان متولد من القرد. وقد ذكرنا الرد عليه وفصلناه بصورة موضحة في البحث (١١٦) المتعلق بالرد على مذهب داروينى في هذا الموضوع فراجعه أن شئت.

الجنة والشجرة

التي نهى الله آدم وحواء عن الأكل منها

وما قاله المفسرون فيهما، وما أفهمه في ذلك

اختلف المفسرون فيما هو المراد هنا من الجنة فقال بعضهم هي الدار الموعود بها في الآخرة وقال بعضهم هي بستان في الأرض خلق فيه آدم وقد استدل كل واحد من الطرفين على صحة قوله وعلى رد القول الآخر بما لا لزوم للتطويل فيه.

أقول ويحتمل أن يكون المارد من الجنة أمر معنوي وهو النعيم والسعادة والراحة والهناء والسرور ورضا الله تعالى وامتثال أمره والمراد من السكنى بها والأكل منها رغدا أي السكون والطمأنينة ومطلق التمتع واللذة وعبرا عنهما مجازا بالسكنى والأكل.

واختلف العلماء أيضا في المراد من الشجرة فقال بعضهم هي سنبلة البر والحنطة وبعضهم شجرة الكرم، وبعضهم شجرة التين، وبعضهم شجرة التفاح وبعضهم شجرة الموز وبعضهم هي شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث إلى غير ذلك من الأقوال البعيدة التي لا دليل لهم عليها.

وقال الصوفية المراد من الشجرة الطبيعة البشرية، والمراد من آدم الروح الإنسانية ومن حواء النفس الحية ومن الجنة تعلق هذه الروح والنفس بالجسم المادي. أي المراد من الشجرة طبيعة هيكل جسد الإنسان المبينة على الشهوات ومن النهي عدم اتباع الروح والنفس لشهوات هذا الجسد ولا يخفى ما في ذلك من البعد أيضا.

وقيل هي شجرة التناسل الذي يحصل بالجماع ولذلك قال في سورة طه ١٢٠: (فوسوس له الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من روق الجنة وعصى آدم ربه فغوى) فإنها تشعر بأن الشيطان قد وسوس لآدم بأن يجامع حواء فيأتي له منها نسل فيخلد بذريته في الأرض ويحصل بذلك على ملك لا يبلى فلما جامعها بدت لهما سوآتهما أي عرفا أن فرجيهما سوأتان يجب على كل منهما أن يسترهما عن عين الآخر فطفقا يسترانها بورق الجنة.

ولا يخفى ما في ذلك من البعد أيضا إذ كيف ينهاهما الله عن شجرة التناسل وهو المقصود الحقيقي من خلقهما.

ما أفهمه في المراد من الشجرة

التي أكل منها آدم وحواء فأخرجا من الجنة

وأدلتي من القرآن الكريم على ما أقول

أقول أن المراد من هذه الشجرة أمر آخر غير ما قاله هؤلاء وهؤلاء وبيان ذلك: أن التعبير باسم الإشارة في قوله (هذه الشجرة) يفيد أن الشجرة مذكورة في نفس الآيات قبله حتى أشار إليها بلفظ (هذه) والمذكورة في نفس الآيات إنما هي الشجرة الإبليسية التي امتنعت من السجود والخضوع لآدم فكأن الله تعالى يقول لآدم حيث أن هذه الشجرة الإبليسية قد امتنعت عن الخضوع إليك فقد أصبح عدوا لك فلا تقربها لئلا يضرك وإنما عبر عن إبليس بلفظ (شجرة) باعتبار ذريته وما تناسل منه فهو كشجرة خبيثة تضر دائما بالشجرة الإنسانية فكل من أكل من هذه الشجرة الإبليسية وتلذذ بهذه الشهوات الشيطانية فقد ظلم نفسه وخرج مما كان فيه من نعيم السعادة ورضا الله تعالى، وهبلك من علو مكانته ورفعة مقامه إلى السفالة والدناءة وغضب الله، وأصبح هؤلاء بسبب ذلك بعضهم لبعض عدو كما قال تعالى في آية أخرى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) ولذلك قال: (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) أي أنكم حيث اقتربتم من هذه الشجرة وظلمتم أنفسكم وأصبح بعضكم عدوا لبعض تتناحرون وتتسافكون الدماء بسبب اقترابكم من شجرة الإغواء فحينئذ ليس لكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حينا من الدهر ثم يهلك بعضكم بعضا. فلو بقى الإنسان على أصله خلقته من البساطة وسلامة الفطرة وقويم الوجهة كما قال تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) لما رد إلى أسف سافلين بسب أكله من شجرة الشياطين ولما أهلك بعضه بعضا بالحروب وغيرها.

ومما يدل على أن المراد من الشجرة المنهي عنها إنما هي الشجرة الإبليسية الشيطانية قوله تعالى في سورة الأعراف (٢١) (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين) فإنها تفيد أن المراد نهيهما عن شجرة الشيطان الذي هو عدو لهما ولذريتهما خصوصا وأن هذه الآية قد وردت عقب تهديد إبليس لبني آدم بقوله (لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) وعقب تحذير الله لآدم وزوجه أي للذكر والأنثى من بني آدم بقوله (فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة) أي الشجرة المتحدث عنها سابقا التي هي إبليس وذريته الذين توعدوا بني آدم وهددوهم بالإغواء والتضليل وبالقعود لهم على كل صراط مستقيم وبإتيانهم من بين أيديهم ومن خلفهم وأيمانهم وشمائلهم.

وبالجملة فإن جميع الآيات التي ذكر فيها آدم حواء والشجرة التي نهيا عنها صريحة في أن المراد من الشجرة إنما هي الشجرة الإبليسية الشيطانية أي إبليس وذريته. وعليه فمعنى قوله تعالى في سورة طه ١٢٠ (فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما

من ورق الجنة) أي أنه حينما اقترب الإنسان ذكره وأنثاه من إبليس وأطاعاه في وسوسته وأكلا من ثمرة شجرته بدت لهما سوآتهما أي ظهرت لهما عاقبة سيئاتهما. ،أحسا بنتائج أعمالهما السيئة وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة أي طفقا يستران سوء هذه الأعمال بأوراق الجنة أي بالأعمال الصالحة ويكفران بها عن سيئاتهما وبالتوبة إلى ربهما.

ومما يفيد ذلك ما ورد في التوراة أيضا حيث قالت في الإصحاح الثاني من سفر التكوين (وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها وأوصى الرب الإله آدم قائلا من جميع شجر الجنة تأكل أكلا وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنها يوم تأكل منها موتا تموت؛ فهذه الآية تدل على أن النهي عنه هو معرفة شجرة الخير والشر. ومما لا شك فيه أن الله تعالى لا ينهي عن معرفة الخير وإنما ذكره لأن به يعرف الشر ويتميز به لأنه ضده (وبضدها تتميز الأشياء) فذكره لأن به بعرف الشر ويتميز به لأنه ضده (وبضدها تتميز الأشياء) فذكره في آية التوراة لا لأجل النهي عنه بل ليتميز الشر من الذي أن أكل منه الإنسان أي استعمله يموت ميتة الخطاة الآثمين كما هو المعنى المقصود من الموت في الكتب المقدسة. وحين\ذ فالشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها ليست شجرة الحنطة أو التين أو التفاح أو الموز أو الحنظل أو نحو ذلك مما يقوله المفسرون بل هي شجرة الشرور الإبليسية، وشجرة الضلالات الشيطانية وثمراتها الشهية الشهوانية.

ما قاله المفسرون

في معنى قوله تعالى (فبدت لهما سوآتهما إلخ)

وفي معنى قوله (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكون ملكين إلخ)

وما أفهمه في معنى هاتين الآيتين خلافا لهم

قال المفسرون في معنى قوله (فبدت لهما سوآتهما) وقوله في آية أخرى لبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما هي عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسيهما ولا أ؛دهما من الآخر وكانت مستورة بالنور وقيل بلباس كالظفر، وحينما بدت لهما غطياها بورق من تين الجنة، وأنا أقول أن المراد من السوآت هنا السيآت والأعمال القبيحة، ومن خصف أوراق الجنة عليهما سترها وتغطيتها بالأعمال الصالحة أي أعمال أهل الجنة ما تقدم توضيحه. وقال المفسرون أيضا في معنى قوله تعالى حكاية عن إبليس (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) أن الاستثناء في هذه الآية على تقدير مضاف أو على تقدري (لا) النافية أي كراهية أن تكونا أو لئلا تكونا ملكين إلخ.

أقول أنه لا داعي لهذا التصرف العيب في آيات القرآن خوصا جعل المثبت فيها منفيا، فبدل أن نقول ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة غلا كراهية أن تكونا أو لئلا تكونا ملكين إلخ كما يزعم المفسرون نقول ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا لأجل أن تكون ملكين أو تكونا من الخالدين أي في الجنة كما هو صريح الآيات الأخرى بدون تقدير مضاف وبدون زيادة لفظ (لا) التي تعكس معنى الآية رأسا على عقب، وحينئذ فمعنى الآية على قولنا أن إبليس أقر واعترف بحقيقة لا يمكنه إنكارها أصلا وهي أن الله تعالى إنما نهاهما عن القرب من شجرة الغواية والضلال إلا لأل أن يكونا ملكين في الصلاح والتقوى أو من الخالدين في جنة النعيم والطمأنينة.ولكن إبليس نفسه لم يرق له ذلك فوسوس لهما بإغرائهما على الشهوات والملذات وعلى مطاوعة النفس والهوى ودلهما على ذلك بالتغرير والخداع كما قال تعالى في نفس هذه الآية (فدلاهما بغرور) هذا ما أراه أقرب للعقل ولمعنى هذه الآيات القرآنية.

وهذا هو المراد من قوله تعالى في آية أخرى (فوسوس إليه الشيطان وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) فإن هذا تغرير وتضليل من الشيطان للإنسان بإيقاعه في طمع النفس بالخلود الكاذب والملك الدائم إذ لا يوجد في الدنيا خلود لا يفنى أو ملك لا يبلى فهذه الدلالة كاذبة خادعة يقصد منها الشيطان أن يطيعه الإنسان في كل ما يأمره به حتى يأكل من شجرة التخلد في شهواته وينغمس في ملك ملذاته التي يقوده الشيطان إليها ويدله عليها.

ثم قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) فال المفسرون أن هذه الكلمات هي (ربنا أطعنا أنفسنا فإن لم تغفر لنا وترحمنا لتكونن من الخاسرين) وقال بعضهم هي (سبحانك الله وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ظلمت نفسي فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) وقال بعضهم أن آدم رأى مكتوبا على ساق العرش (محمد رسول الله) فتشفع به وإطلاق لفظ كلمات على محمد وعلى رسول الله هو كإطلاق لفظ (كلمة) على عيسى عليه السلام إلى غير ذلك من الأقوال البعيدة.

أما أنا فأقول أن معنى (فتلقى آدم من ربه كلمات) أي أن الإنسان تلقى من ربه بواسطة وحيه على رسله (كلمات) أي تعاليم إلهية تهديه إلى سواء السبيل وإلى الصراط المستقيم فتاب عليه بواسطة عمله بهذه التعاليم الإلهية والكلمات السماوية كما قال تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) فسورة (التين) توضح معنى هذه الآيات من سورة البقرة حيث أن الإنسان قد خلق في أحسن تقويم ثم رد إلى أسف سافلين بأكله من شجرة الشياطين إلا من آمن وتلقى من ربه كلمات الهداية بواسطة النبيين فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم.

هذا ما أراه أحسن في تفسير هذه الآيات، وأما ما تشعر به هذه الآيات من نسبة الذنب والخطيئة إلى آدم مع أنه نبي ورسول والنبي معصوم عن ذلك فقد عرفت أنه على هذا التفسير منسوبة إلى نوع الإنسان وعلى فرض أن المراد من آدم شخصه كما يقول المفسرون فهذه الخطيئة لم تحصل منه وهو نبي بل حصلت منه قبل النبوة؛ لأن النبوة إنما حصلت له بعد هبوطه إلى الأرض وبعد وجود ذرية له حتى صح أن يكون نبيا ورسولا لهم. والخطيئة قبل النبوة لا يوجد دليل على منعها.